الويل من صراع سني شيعي

بروفيسور عبد الستار قاسم

21/صفر/1428

يخطئ من يقلل من خطورة ما يجري على الساحة العراقية من هجمات متبادلة بين السنة والشيعة على العرب والمسلمين. إذا توسعت هذه الهجمات وتحولت إلى حرب أهلية فإنها لن تبقى محصورة بالعراق، ولن يكون وقودها فقط أهل العراق، لكنها ستمتد لتشمل مناطق عربية وإسلامية أخرى، وستجد دول كثيرة عربية وإسلامية نفسها متورطة بدرجات مختلفة في صراع دموي يأتي بالدمار على الجميع. مخاوف تفاقم الأوضاع في العراق حقيقية ومتزايدة بخاصة أن هناك جهالا يريدون الاستمرار في معارك صفين، وأذكياء يخططون لإشعال أوار الحرب خدمة لمصالحهم.

غرقت الولايات المتحدة في مستنقع العراق، ولم يعد خافيا أنها تبحث عن مبرر قوي لسحب قواتها دون تحقيق ما أتت من أجله؛ وإسرائيل لا ترى سببا للبهجة لما آلت إليه الأمور بخاصة أن انتصار المقاومة العراقية سيزيد من متاعبها وهمومها. تطورات الأوضاع في المنطقة لا تبشر بخير لا لأمريكا ولا لإسرائيل: حزب الله ما زال قويا وقادرا على لعب دوري معاكس للسياستين الأمريكية والإسرائيلية؛ حركة حماس تفوز بالانتخابات مما يضع مشروع الاستسلام الفلسطيني في مهب الريح؛ حركتا القاعدة وطالبان أعادتا ترتيب صفوفهما وهما يوقعان خسائر في قوات التحالف في أفغانستان؛ الصراع في باكستان بين الحكومة ومناوئيها يحتدم ويصبح أكثر دموية؛ إيران تسير قدما في مشروعها النووي وهي تشكل تهديدا استراتيجيا لمنابع النفط؛ أما الأنظمة العربية فتلوذ بصمت يعبر عن هامشيتها في تفاعلات المنطقة.

يأخذ الصراع في المنطقة العربية–الإسلامية بعدا مختلفا عن المعهود من حيث أن الوقوف في وجه الأجنبي نحو تحقيق الذات والاستقلال يأخذ أبعادا عملية ملموسة بقيادة أناس مستعدين للموت. تلك الجعجعة والشعارات الرنانة التي كانت تميز سلوك العرب والمسلمين تجاه الدول الاستعمارية وإسرائيل قد تراجعت أمام إرادات من نوع مختلف ولصالح قدرات صلبة على التخطيط والتنفيذ. هذا فضلا عن أن مستوى الالتزام الأخلاقي الذي يلمسه الناس من القوى الجديدة المناهضة للاستعمار يعطي هذه القوى زخما جماهيريا وشرعية تاريخية. فهل يمكن أن يصمت الغرب وإسرائيل عن هذه التحولات؟

أمريكا وإسرائيل لا تقفان متفرجتين على تقلص نفوذهما في المنطقة، ولن تناما على تنامي قوة أعدائهما. المواجهة المباشرة هي إحدى وسائلهما، لكن بث الفرقة والفساد وإشعال حروب أهلية يشكلان الوسيلة الأكثر فاعلية. تؤدي المواجهة المباشرة إلى استفزاز مشاعر شعوب المنطقة، وقد تؤدي إلى انعكاسات سلبية مثلما حصل في العراق، أما الفتن الداخلية فذات تكلفة أقل وتؤجج مشاعر الكراهية والبغضاء بين شعوب المنطقة. هذا على غرار ما حصل في حرب الخليج الأولى حيث عمدت أمريكا إلى إشعال صراع يكون وقوده النفوس والأموال العربية والإيرانية.

أسهل الطرق الآن نحو فتنة تُغرق العرب والمسلمين وتنجي أمريكا وإسرائيل هي بث المزيد من الشقاق والفساد بين السنة والشيعة في العراق. يقف الطرفان على حافة من الهاوية، وكل منهما يضغط على الزناد مستعدا للانطلاق ضد الآخر. هذا فضلا عن التوتر القائم بين الطرفين في مناطق أخرى مثل باكستان.

إذا اشتعل الفتيل فإن أحدا في المنطقة العربية الإسلامية لن ينجو منها، وربما لن يجد عقلاء كثيرون مكانا في زحمة المزايدات الطائفية. هذه ستكون وصفة مرعبة لاستنزاف الطاقات العربية

والإسلامية وستكون إسرائيل وأمريكا هما الرابحين. ولهذا يجب أن يحرص الجميع على اتقاء شر الفتنة ووأدها بأسرع ما يمكن، وعلى الجميع أن يتحدث بصراحة ووضوح مع سنة العراق وشيعتها بأن التحريض على العنف الطائفي إنما هو لعب بمستقبل الأمة العربية والإسلامية وبمقدراتهما ومستقبلهما، وأن كل من يساهم بالفتنة عبارة عن عميل لقوى أجنبية على رأسها أمريكا وإسرائيل.

هناك رجال دين أشقياء من كلا الطرفين ما يزالون يعيشون التاريخ ويصرون على الاستمرار في حرب تاريخية أنهكت الأمة ومزقتها، وتركت بصماتها السيئة على المسلمين حتى الآن. رجال الدين هؤلاء غادروا القرآن الكريم وتركوه خلف ظهورهم لصالح أحداث تاريخية يرون فيها قدسية أكثر مما في القرآن. هؤلاء لا يدركون بأن الشيعة والسنة عبارة عن فرق تاريخية وليست فرقا دينية، ولا يستوعبون بأن القرآن الكريم لا علاقة له بالمذاهب ولم يدع إليها. قال لنا سبحانه وتعالى بأن نعتصم بحبله ولا نتفرق، ومن هذا نرى أن الفرق التي تسمي نفسها إسلامية إنما هي خارجة عن التعاليم الإسلامية الصريحة والواضحة.

من المطلوب شن حرب إعلامية على كل اتجاهات التمزيق التي تزرع الكراهية والبغضاء، ونشر كل المعلومات التي تدحر الفرق المتنازعة في زاويتها التاريخية الخاصة التي لا علاقة للإسلام بها. هذا من أجل أن يكف التاريخيون عن محاولاتهم زج الأمة في أتون فتن باسم الإسلام. كبار علماء الطرفين الذين يقولون بأنهم معتدلون ومتعقلون يتحملون المسؤولية الأولى لما لهم من تأثير واسع في القطاعات الدهماء من الناس التي تثور لثورة غيرها وتهدأ لهدوئه. علماء الأزهر ومكة وقم والنجف يتحملون المسؤولية الأولى، وإذا كان لفتنة أن تنشب فإن وزرها الأكبر يقع على عاتقهم.

أنا باحث في الفكر الإسلامي ولم أجد في القرآن الكريم ما يبجل الشيعة أو السنة أو الخوارج. الفكر الإسلامي عبارة عن فكر موحد يفتح باب الاجتهاد بهدف تحقيق التقدم وليس بقصد التمزيق. أمة الإسلام أمة مجتهدة تتطلع دائما نحو الخير لتقدم الجديد لنفسها وللأمم الأخرى، وهي ليست أمة غباء تعيش في الماضي لتكرس التخلف لأبنائها.